الفصل الأول

فترة الولاة

١ ـ فترة منازعات وحروب :

أهم ما تتسم به فترة الولاة من الناحية السياسية أنها فترة منازعات وحروب[١] ، فهى فترة الفتح وما يتبعه من تأكيد سلطان الفاتحين بتتبع الفارين والمناوئين ؛ ثم هى فترة المنافسة على الولاية والمنازعة فى السلطة ، بين العرب والبربر أولا ، ثم بين العرب أنفسهم قحطانيين وعدنانيين ثانياً . وهكذا شهدت تلك الفترة من تاريخ الأندلس كثيراً من الحملات الحربية . التى كانت تسير إلى لقاء الفرنجة عبر البرانس حيناً ، وإلى لقاء الإسبان فى الأقاليم الشمالية من شبه الجزيرة حيناً آخر . كذلك شهدت تلك الفترة كثيراً من الثورات ، يقوم بها البربر ضد العرب تارة ، ويشنها بعض العرب ضد واليهم تارة أخرى ، وكتب التاريخ تورد لنا أسماء أربعة وعشرين والياً [٢] قاموا بالأمر تباعاً فى الأندلس خلال تلك الفترة ، التى لا تبلغ نصف القرن . وهذا وحده كاف فى

---

(١) انظر : أخبار مجموعة ص ١٩ — ٥٨ . وابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠ — ١١ . وابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٠ — ٥٦ .

وانظر أيضاً : Levi : Espana musulmana, pp. 22 ff. .

(٢) هؤلاء الولاة هم : طارق بن زياد (٧١٠ — ٧١١) م وموسى بن نصير (٧١١ — ٧١٣) وعبد العزيز بن موسى (٧١٣ — ٧١٥) وأيوب بن حبيب (٧١٥ — ٧١٥) والحر بن عبد الرحمن (٧١٥ — ٧١٨) والسمح بن مالك (٧١٨ — ٧٢٠) وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (٧٢١ — ٧٢١) وعنبسة بن سحيم (٧٢١ — ٧٢٥) وعذرة بن عبد الله الفهرى (٧٢٥ — ٧٢٥) ويحيى بن سلمة الكلبى (٧٢٥ — ٧٢٨) وحذيفة بن الأحوص (٧٢٨ — ٧٢٨) وعثمان بن أبى نسعة (٧٢٨ — ٧٢٩) والهيثم بن عبيد (٧٢٩ — ٧٢٩) ومحمد بن عبد الله الأشجعى (٧٢٩ — ٧٣٠) وعبد الرحمن الغافقى للمرة الثانية (٧٣٠ — ٧٣٢) وعبد الله بن قطن (٧٣٢ — ٧٣٤) وعقبة بن حجاج (٧٣٤ — ٧٤٠) وعبد الملك بن قطن للمرة الثانية (٧٤٠ — ٧٤٠) وبلج بن بشر (٧٤٠ — ٧٤١) وثعلبة بن سلمة العاملى (٧٤١ — ٧٤٢) وأبو الخطار حسام بن ضرار (٧٤٢ — ٧٤٤) وثوابة بن سلمة (٧٤٤ — ٧٤٦) وعبد الرحمن بن كثير (٧٤٦ — ٧٤٦) ويوسف الفهرى (٧٤٦ — ٧٥٥) .

تصور ما كانت عليه سياسة الأندلس فى هذه الفترة من اضطراب وعدم استقرار . فالحكم الإسلامى كان لايزال فى طور البدء بتلك البلاد ، ولم يكن قد أصاب حظًّا من الاستقرار المطمئن بعد ، ولم تكن الحكومة الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية ، التى تلوذ بها جماعات فارة متربصة . كذلك لم تكن الحكومة الإسلامية قد أمنت حدودها ضد الفرنجة فيما وراء البرانس . وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق دائماً فى تلك الفترة من حياتهم بالأندلس ؛ فالعرب قد تفردوا بالسهول الخصيبة ، وجعلوا منهم الوالى وغيره من حكام الأقاليم ، أما البربر فقد أفردوا بالمناطق الجبلية والأقاليم النائية ، وحرموا من الولاية ومما يشبه الولاية من رياسات . والعرب أنفسهم قد جاءوا إلى الأندلس بعصبياتهم ولم ينسوا العداوات القديمة بين عدنان وقحطان .

ومن هنا كانت الحروب الدينية بين المسلمين والإسبان والفرنجة أولا ، وكان النزاع العنصرى الدموى بين العرب والبربر ثانياً . ثم كان الصراع القبلى بين العرب أنفسهم آخر الأمر . لهذا كله كانت السمات السياسية لتلك الفترة هى النزاع والصراع ، والاضطراب والقلق .

٢ — مجتمع مفكك قلق :

وقد كان أكثر الداخلين إلى الأندلس فى تلك الفترة من أهل الحرب والحكم ، وكانوا فى أول لقائهم بسكان هذه البلاد ، وفى أولى مراحل التعرف إليهم والاتصال بهم . وبالرغم من أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا يقبلون على الإسلام ويحاولون تعلم العربية ، وبالرغم من أن الوافدين كانوا يتزوجون منهم ويعيشون فى البلاد معهم ؛ قد كان قرب العهد بالفتح لايزال يطبع المسلمين بطابع الغرباء ، ويطبع الإسبان بطابع المواطنين ، فكان المجتمع لم يتم توحده بل لم يتم ترابطه . فإذا أضفنا إلى ذلك ما تعكسه المنازعات

والحروب التى كانت أهم سمات السياسة فى تلك الفترة ؛ تصورنا المجتمع فى تلك السنوات من تاريخ الأندلس ، مجتمعاً مقسماً مفككاً ؛ فيه عرب وفيه بربر ، وفيه إسبان مسلمون وغير مسلمين ، ثم تصورناه قبل ذلك مجتمعاً لا استقرار فيه ولا هدوء ؛ فهو بين جيوش تسير ، وثورات تشب ، ووال يعزل ، وآخر يقتل . وكل هذا من شأنه أن يصيب المجتمع بأنواع من الاضطراب الحسى والنفسى ؛ تعوقه عن كل ما هو فى صالح تقدمه ونهوضه .

٣ — الأشعة الأولى للثقافة الإسلامية :

لسنا — بعد ما تقدم — ننتظر ثقافة لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، فالفترة فترة منازعات وحروب ؛ والمجتمع مفكك قلق ، مضطرب الحس والنفس جميعاً . وأغلب الداخلين إلى الأندلس جنود وحكام ، شأنهم المعارك والسياسات لا العلوم والثقافات.

ومع ذلك قد عرفت الأندلس فى فترة الولاة نوعاً من الثقافة ، كان بمثابة خيوط الفجر الأولى ، التى تؤذن بصبح مشرق . فقد دخل الأندلس فى فترة الولاة نفر من الصحابة والتابعين [١] ، الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية ، وكانوا يصحبون الجند أو يفدون بعد الفتح ، للإفتاء فيما يعن للمسلمين من أمور الدين ، كتقسيم المغانم وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد ، وتفقيه الناس [٢] . وأغلب الظن أن هؤلاء قد أسسوا أوائل المدارس الأندلسية ، حين أنشئت أوائل المساجد فى إشبيلية وقرطبة وغيرهما

---

(١) من الصحابة : المنيذر . ومن التابعين : موسى بن نصير ، وعلى بن رباح ، وحنش الصنعانى ، وابن يزيد المعافرى ، ونشيط بن كنانة العذرى ، وحيوة بن رجاء التميمى ، وعياض بن عقبة الفهرى ، وعبد الجبار بن أبى سلمة. انظر : المقرى : نفح جـ ٢ ص ٥١ وما بعدها ، والمراكشى : المعجب ص — ٩ — ١٠ .

(٢) من المعروف أن عمر بن عبد العزيز بعث عشرة من التابعين إلى إفريقية لتثقيف الناس . والعلاقة كانت وثيقة بين إفريقية والأندلس . انظر : رياض النفوس لأبى بكر المالكى جـ ١ ص ٦٤ وما بعدها .

من البلاد ، وأن عنايتهم كانت قبل كل شيء بتدريس كتاب الله وسنة رسوله ، وبلغة القرآن والحديث[١] .

وليس من شك فى أن الحياة الثقافية كانت متواضعة أشد التواضع ، وأنها لم تكن تتجاوز حلقات فى بعض المساجد التى كانت قليلة حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين أيضاً بطبيعة الحال .

٤ — البذور الأولى للأدب العربى :

وكما عرفت تلك الفترة نوعا متواضعاً من الثقافة ، عرفت كذلك قدراً ضئيلا من الأدب ، وكما وفدت الثقافة المتواضعة مع نفر من العلماء كانوا ممن خدموا الولاية الإسلامية حينئذاك ، وفد الأدب الضئيل أيضاً مع نفر من الأدباء كانوا ممن عملوا فى الولاية الأندلسية فى تلك السنين . وكما كان هذا القدر المتواضع من الثقافة بمثابة الخيوط الأولى لفجر الثقافة الأندلسية ، كان هذا الحظ الضئيل من الأدب بمثابة بذور الأدب الأندلسى الذى سيزدهر بعد حين . وفيما يلى كلمة عن كل من جنسى الأدب :

(ا) الشعر :

كان من بين العرب الوافدين على الأندلس فى فترة الولاة نفر ممن يقرضون الشعر وقد حفظت لنا المراجع بعض أسماء هؤلاء ، فمنهم :

أبو الأجرب جَعْوَنَة بن الصِّمَّة . وهو من العرب الطارئين على الأندلس ، وقد اشتهر بهجاء الصُّمَيْل بن حاتم رئيس القيسية هناك . واشتهر أيضاً بمدح الصميل بعد

---

(١) يستفاد ذلك مما ذكر صاعد فى : طبقات الأمم ، حيث قرر أن عناية الأندلسيين كانت فقط بعلوم الدين واللغة حتى توطد الملك لبنى أمية (ص ٦٢) .
وانظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٠ — ٤١ .

أن تمكن منه فعفا عنه . وقد قيل إن هذا الشاعر كان فى مرتبة جرير والفرزدق ، وأنه لو أنصف لاستشهد بشعره . كذلك روى أن أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسى ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعر جعونة ، وذلك حين التقى أبو نواس بابن ناصح فى العراق [١] .

ومع كل ذلك ليس بين أيدى الباحثين اليوم إلا قليل جداً من شعر هذا الشاعر ، الذى اهتم به أبو نواس ، والذى قيل إنه فى مرتبة جرير والفرزدق ، والذى قيل إنه كان يجب أن يستشهد بشعره . ومن هذا القليل الذى حفظ من شعر جعونة قوله :

ولقد أرانى من هواى بمنزل عال ورأسى ذو غدائر أفرعُ

والعيشُ أغيد ساقطٌ أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع [٢]

ومن شعراء تلك الفترة كذلك :

أبو الخطّار حُسام بن ضِرار . . وقد كان من أشراف القحطانيين فى الأندلس ، وممن شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا وأبلوا فيها . وقد وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥ هـ — ٧٤٢ م أيام هشام بن الملك . وكان شاعراً فارساً ؛ ولذا لقب بعنترة الأندلس [٣] . وهو كسابقه . لم يعثر إلى اليوم إلا على قليل من شعره . فمن ذلك قوله فى ثأر أخذه لعزيز من قومه :

فليت ابن جَوّاسٍ يخبّر أننى سعيتُ به سعى امرئٍ غير عاقلِ

---

(١) راجع فى أخبار الشاعر : ابن سعيد : المغرب جـ ١ ص ١٣١ — ١٣٢ . والمقرى : نفح جـ ٢ ص ١٥٦ . والضبى : بغية الملتمس . ترجمة رقم ٦٢٢ والحميدى : جذوة المقتبس ١٨٧—١٨٨ .

(٢) ورد هذان البيتان بهذا التحقيق فى المغرب جـ ١ ص ١٣٢ .

(٣) انظر فى أخبار أبى الخطار : بغية الملتمس للضبى ت ٦٨٦ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ١٨٨—١٨٩ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٨ — ١٩ ، وأخبار مجموعة ص ٥٦ — ٦٠ .

قَتلتُ به تسعين تحسب أنهم جذوع نخيل صُرِّعت فى المسايل
ولو كانت الموتى تباع اشتريته بكفى وما استثنيت منها أناملى[١]

ومن شعره أيضاً قوله فى معاتبة للحكام المروانيين على نصرتهم للقيسيين على اليمنيين :

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكمُ لم تشهدوا « مرج راهط »[٢] ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكمُ حر الوغى بصدورنا وليست لكم خيل تُعَدُّ ولا رَجْل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتمُ عنا كأن لم يكن لنا بلاء وأنتم — ما علمتُ — لها فُعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة وزلت على المرقاة بالقدم النعل[٣]

هذان شاعران تردد شعرهما فى الأندلس خلال فترة الولاة ، ومن المحقق أنهما لم يكونا وحدهما اللذين عُرفا بقول الشعر فى تلك الفترة ، وإنما كان هناك آخرون[٤] نسيت أسماؤهم وضاعت أشعارهم ، مع الكثير مما نسى وضاع من تراث الأندلس ، وخاصة فى هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها .

---

(١) الحميدى : جذوة ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) معركة دارت بالشام سنة ٦٥ هـ فى عهد مروان بن الحكم ومعه اليمنيون بقيادة حسان بن مالك الكلبى ضد القيسيين المشايعين لابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهرى ، وانتهت بهزيمة الضحاك وانتصار اليمنيين ، وكانت معركة حاسمة دعمت قيام الدولة المروانية فى الشرق .

(٣) هذا نص الأبيات فى تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، مع إغفال بيت أخير ورد ناقصاً هكذا : . . . حبل الوصل وانقطع القوى ألا ربما يلوى فينقطع الحبل

وقد جاءت الأبيات فى الجذوة بصور مغايرة قليلا للصورة التى جاءت عليها فى كتاب ابن القوطية . وقد آثرت الأولى لأنها أسبق .

انظر جذوة المقتبس ص ١٨٩ وتاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ — ١٩ .

(٤) من شعراء تلك الفترة : بكر الكنانى الذى سأل عنه أبو نواس عباس بن ناصح كما سأل عن جعونة بن الصمة السابق الذكر : انظر المقرى جـ ٢ ص ١٥٦ .

وإذا جاز لنا أن نتصور خصائص الشعر فى هذه الفترة ، فنحن ملزمون بالحذر الشديد لقلة ما بين أيدينا من نصوص ، ونحن مضطرون إلى الاسترشاد بما لدينا من أخبار بعض الشعراء الذين عاشوا فى تلك الفترة ، لنعوض بتلك الأخبار قلة الشعر ، ثم نحن مضطرون آخر الأمر إلى الاعتراف بأن هذا التصور تقريبى ظنى لا حقيقى قطعى . وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال : إن شعر هذه الفترة ليس له من الأندلسية إلا أنه قيل فى الأندلس ؛ فقائلوه فى الحقيقة مشارقة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح وبعده . ثم هو بعد ذلك شعر مماثل لذلك الشعر المحافظ الذى كان شائعاً فى المشرق فى ذلك الحين ، والذى كان من أعلامه جرير والفرزدق . فهو شعر يتناول فى موضوعاته المدح والهجاء والفخر والحماسة ، كما رأينا فى بعض النماذج القليلة التى حفظت لنا ، وكما تدل أخبار بعض الشعراء ، ثم هو شعر يجرى على تقاليد المدرسة المحافظة Clasica ولا ينعكس عليه من الأندلس أى أثر ؛ فهو يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة ، ولا يُرى فى معانيه كثير من تعمق الفكر . ولا يلمح فى صوره نصيب من تحليق الأخيلة . وإنما هو أميل إلى البداوة . وأقرب إلى الخشونة .

وربما كان هذا الشعر أنسب شىء إلى طبيعة الناس وظروفهم فى ذلك الحين ؛ فقد كانوا لا يزالون على كثير من بداوتهم ، متمسكين بقبليتهم . ولم يصيبوا بعد من الثقافة والتحضر والتأثر بالحياة الجديدة ، ما من شأنه أن يوجه شعراءهم إلى تجارب شعرية محدثة وأساليب فنية مميزة .

(ب) النثر :

ربما لم يكن بين أيدى الباحثين اليوم نماذج ذات شأن من نثر تلك الفترة من تاريخ الأندلس . ولكن الذى لا شك فيه . أن هذه الفترة عرفت بعض الناثرين وكان لها حظ ولو ضئيل من النثر ؛ بل ربما كان هذا الحظ على ضآلته أوفر من حظ الشعر . ذلك أنه

كانت هناك دواع للنثر أكثر من دواعى الشعر ؛ فالخطابة كانت ضرورة تقتضيها ظروف الحرب والنزاع القبلى[١] . وتتطلبها مناسبات سياسية ودينية مختلفة . ولا يمكن أن نتصور المسلمين فى الأندلس قد عاشوا فترة الولاة دون أن يصغوا إلى خطباء ؛ فهم على الأقل كانوا يستمعون إلى هؤلاء الوعاظ والدعاة الذين كانوا عادة يصحبون الجنود ويفدون على الأقاليم الجديدة ليثبتوا المقاتلين ، ويدعوا للنظام الجديد[٢] .

والكتابة كانت كذلك ضرورة تقتضيها ظروف الفتح والحكم وتسيير الشئون، وتتطلبها أيضاً مناسبات رسمية وشخصية عديدة ، كعهد يُعطى وصلح يُبرم ورسالة توجه .

وقد حفظت لنا بعض المراجع قليلا جداً من كتابات فترة الولاة ، كما حفظت أيضاً بعض أسماء الكتاب القليلين . فما حفظ من الكتابة عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير « لتُودمير » أحد حكام القوط . وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبون ، أولادهم ونساءهم ؛ ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ما تُعبِّد ونُصح . وأنه لا يأوى لنا عدواً ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبراً علمه . . . »[٣]

ومما حفظ كذلك من كتابة تلك الفترة ، جزء من رسالة يوسف الفهرى آخر الولاة ، إلى عبد الرحمن بن معاوية حين علم بنزوله بالأندلس . والمرجح أن محرر تلك الرسالة هو خالد بن يزيد ، كاتب يوسف الفهرى ورسوله إلى عبد الرحمن ، حين أراد أن يتألفه ويتفادى خطره[٤] . وذلك هو الجزء الذى بقى من الرسالة :

---

(١) انظر ما كان من قول الصميل بن حاتم لأصحابه ، فى البيان المغرب جـ ٢ ص ٥٠ . وما كان بين الصميل ورجل عارضه ، فى أخبار مجموعة ص ٦١ .

(٢) انظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٧٤ — ١٨٥ .

(٣) Casiri : Biblioteca Arabico Hespana Escurialensis II, p. 105.

(٤) انظر : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٦٧ .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكّب ، وتأبّش[١] من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا[٢] ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معى إن أردت ، أو بحيث تريد . ثم لك عهد الله وذمته بى ، ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقية ، ولا غيره . . . »[٣]

ومن الكتاب القليلين الذين عملوا فى تلك الفترة : خالد بن يزيد . الذى كان كاتباً ليوسف الفهرى أحد ولاة الأندلس .

ومنهم كذلك أمية بن زيد ، الذى دخل الأندلس مع جنود بَلْج بن بشر ، واتصل بخالد بن زيد فجعله كاتباً معه . وقد اشتغلا بالكتابة حتى أيام عبد الرحمن الداخل . . وعملا له بعض الوقت[٤] .

وإذا جاز لنا أن نتصور نثر تلك الفترة . فإننا بعد الحذر الشديد والاستعانة بتصور حال تلك الفترة من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية ؛ نتصوره نثراً يتناول مسائل الدين وشئون السياسة وأمور القبائل فى خطبه ، ويعالج العهود والرسائل والتوقيعات فى كتابته . وذلك لأن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة تلك الفترة وتتطلبه ظروفها . أما الخصائص الفنية لهذا النثر ، فهى خصائص النثر المشرقى الذى كان معروفاً فى عصر بنى أمية . فهو نثر يميل إلى الإيجاز ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف

---

(١) تأبش : تجمع وتجيش .

(٢) غمصوا : أنكروا واستقلوا .

(٣) انظر : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٧ — ٦٨ .

(٤) انظر : إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٧٣٦ ورقة ١٠ ، ١١) .

تلك المقدمات الطويلة والرسوم المرعية والألقاب العديدة ، وما أشبه ذلك مما جاء مع العصر العباسى ، ومما كان من أسبابه اختلاط العرب بالفرس . وربما أيد هذا التصور ما يعرف من أن الناثرين — كالشاعرين فى تلك الفترة — كانوا جميعاً مشارقة الأصل والثقافة . ومن شأنهم أن يسيروا على ما عرفوا فى المشرق من أساليب . وربما ساعد على هذا التصور أيضاً ، ذلك العهد الذى كتبه عبد العزيز بن موسى . ثم هذه الرسالة التى وجهها يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن بن معاوية ؛ فهما على قصرهما ظاهرتا الدلالة على بعض ما ذكرنا من خصائص النثر فى فترة الولاة .

٥ — الأدب المنسوب إلى طارق :

وربما كان من المكمل للحديث عن الأدب فى فترة الولاة ، أن نعرض لنصين نسبا إلى طارق بن زياد ، أحدهما أبيات من الشعر يقول فيها :

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيّرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشئ فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا[1]

وثانى النصين خطبة قيل إنه ألقاها فى جنوده يحمسهم على القتال بعد أن نزل بهم بلاد الأندلس ، وبعد أن أحرق السفن التى حملته وجنوده من شمال إفريقيا إلى جنوب إسبانيا .

ونص تلك الخطبة هو : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدى عدوكم ، وإن امتدت

(١) المقرى : نفح جـ ١ ص ١٢٤ .

بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ؛ ولا حملتكم على خطة — أرخص متاع فيها النفوس — أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا . استمتعتم بالألذ الأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ؛ وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولىّ إنجادكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون »[1] .

ولو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد . لكانا أول أدب عربى تردد فى الأندلس ، ولكانا فى طليعة النصوص التى تعثر بها فترة الولاة . ولكن نسبة هذين النصين إلى طارق يحف بها كثير من الشك ؛ وذلك لعدة أسباب . منها أن طارق بن

---

(١) المقرى : نفح جـ ١ ص ١١٢ .

زياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير[١] ؛ ومن شأنه أن يكون حديث عهد بالعربية ، وألا يستطيع الخطابة والشعر بلغة هو حديث عهد بها . فقد ولى موسى بن نصير قيادة المغرب على الأرجح سنة ٨٩ هـ أيام الوليد بن عبد الملك ، ومن المعقول أن تكون هذه السنة هى مبدأ ارتباط طارق بموسى ، وربما بالإسلام والعربية أيضاً ، فإذا كان فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ ، فإن عمر طارق فى الإسلام واتصاله بالعربية يكون فترة وجيزة يستبعد معها أن يجيد طارق لغة العرب إجادة تسمح له بنظم الشعر وإلقاء الخطب[٢]

ومن أسباب الشك فى هذا الأدب المنسوب إلى طارق ، أن المصادر الأولى التى سجلت حوادث تفاصيل الفتح ، قد خلت تماماً من أى حديث عن هذا الأدب مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها فى باب الأساطير . وقد استوت فى ذلك الصمت عن هذا الأدب ، المصادر الأندلسية[٣] والمشرقية[٤] جميعاً . ولم يرد هذا الأدب المنسوب إلى طارق إلا فى بعض المصادر المتأخرة كثيراً عن فترة الفتح ، مثل نفح الطيب للمقرى[٥] الذى أورد الخطبة دون أن يخبرنا عن المصدر الذى نقلها عنه ، وأورد الشعر معتمداً — كما قال — على كتابى المسهب والمغرب ، وهما بدورهما متأخران كثيراً عن فترة الفتح[٦] .

ومن أسباب الشك فى نسبة الخطبة بخاصة إلى طارق ، ذلك الأسلوب الذى جاءت به ؛ فهو أسلوب لم يكن معروفاً فى النثر العربى خلال الفترة التى تعزى إليها تلك الخطبة .

---

(١) وقيل أصله فارسى . والراجح كونه من البربر . انظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٧ .

(٢) وحتى لو فرضنا أن طارقاً كان على صلة بالإسلام والعربية قبل ولاية موسى ، لأن له أبوين فى الإسلام كما يذكر ابن عذارى فى البيان المغرب — فإن ذلك لا يتيح له معرفة العربية إلى درجة قول الشعر وإلقاء الخطب بها ، لأن أحوال المغرب فى تلك الآونة لم تكن تسمح بتأدب .

(٣) مثل : أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية .

(٤) مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفتوح البلدان للبلاذرى .

(٥) وهو مغربى من علماء القرن الحادى عشر هـ .

(٦) المسهب للحجارى . والمغرب لابن سعيد . وهما أندلسيان عاش أولهما فى القرن السادس الهجرى . وعاش الثانى فى القرن السابع .

فالسجع الكثير والمحسنات المتكلفة قد عاشت فى عصر متأخر كثيراً عن القرن الأول الذى قالوا إن ابن زياد قال خطبته فيه ، والمعروف أن الخطابة فى تلك الفترة كانت كنماذج الحجاج وزياد وقطرى وغيرهم ممن عرفهم العصر الأموى . والخطبة التى بين أيدينا — منسوبة إلى طارق — بعيدة كل البعد عن خصائص الخطابة المعروفة حينذاك ، وإنما هى أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسى ، وربما إلى ما بعد ذلك حيث شاع السجع وكثرت المحسنات .

وشىء آخر قد جاء فى نص الخطبة يبعد أن يقوله طارق . وهو قوله لجنده — وكانوا كما نعرف من البربر — « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً » : فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر ، وجنوده كانوا يعرفون أنهم ليسوا عرباناً ، ومن هذا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذى لا يقوله إلا غير عالم بحقيقة جيش طارق .

لهذا كله يرجح أن يكون هذا الأدب المنسوب إلى طارق من وضع بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن فترة الفتح ، والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسى وربما بالعصر المملوكى . وقد كان الرواة والقصاص يضعون كثيراً ، مازجين التاريخ بالقصص والأساطير . وقد أحاطوا الفتح الأندلسى خاصة بكثير من أقاصيصهم وأساطيرهم . فأغلب الظن أن هذا الأدب المنسوب إلى طارق بعض ما وضع هؤلاء الوضاعون[1] .

حقيقة قد يكون طارق خطب جنوده محمساً مشجعاً ، وقد يكون تغنى انتصاراته مفاخراً مباهياً . ولكن المعقول أن يكون ذلك بلغته البربرية التى كان يجيدها والتى كان يفهمها جنوده .

---

(١) أما مسألة إحراق السفن فلم ترد إلا فى : نزهة المشتاق للإدريسى (ص ١٧٨) وهو من مؤلفى القرن الخامس الهجرى . وكل المراجع السابقة قد سكتت عن تلك الحادثة تماماً . ولكن من الطريف أن فاتحاً حديثاً عمل نفس العمل الذى ينسب إلى طارق ، وأكثر من ذلك أنه إسبانى . فعند ما أشرف هرناندو كروتيس على شاطىء المكسيك فاتحاً سنة ١٥١٩ أمر بإحراق سفنه التى قدم عليها جيشه من إسبانيا . والمعقول أن يكون هذا القائد قد تأثر بما نسب إلى طارق قبل ذلك بنحو ثمانية قرون .

على أن الشك فى نسبة هذا الأدب إلى طارق لن يغض من عظمة القائد ولا من جمال الأدب ودلالته ؛ فلن يعيب القائد البربرى العظيم ألا يخطب أو يشعر بالعربية فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ البربر فى الإسلام . ولن يعيب هذا الأدب ألا يقوله طارق ، وأن يقوله متأخر صور به — على قدر خياله — ما كان من القائد البربرى وجيشه حينذاك .

وربما أفاد نفى نسبة الخطبة إلى طارق ، فى رد زعم من اتهموا جيوش الإسلام الفاتحة بالطمع والرغبة فى السلب والنهب ، لا فى نشر العقيدة والتمكين للدين الذى به يدينون . فالمسئول عن الأطماع التى فى هذه الخطبة ، هو خيال مؤلفها ؛ فمضمونها لا يعدو أن يكون خيالا لمؤلف أديب لا فكرة لقائد مسلم .